

صورة اليهودي في كتابات المفكرين المغاربة (ألبيير ميمي ومالك بن نبي أنموذجا) شهرة بلغول

- قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة باجي مختار - عنابة، chahrabelghoul@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2016/01/28

تاريخ المراجعة: 2017/09/14

تاريخ القبول: 2017/09/25

ملخص

تندرج هذه المقاربة في سياق دراسة الصورة، بوصفها مبحثاً من مباحث الأدب المقارن، وتروم تتبع تمثّلات صورة اليهودي في كتابين لمفكرين مغاربة ينضويان ضمن ثقافتين مختلفتين، وذلك لإبراز تجلياتها على صعيد الأنا والآخر، بشكل يمكن من رصد دور التحيزات الغربية في تشكيل تصوّر نمطي عن هذه الشخصية، يرتبط إلى حد ما بالعنصرية الأوروبية ذات الطابع الشمولي الاستعماري، وحضورها في تصوّر أحد مفكري النهضة العربية باعتبارها العقل المدبّر للمشروع الاستعماري، وقد تمحور العمل على تفكيك هذه الصور النمطية وتحليلها.

الكلمات المفتاحية: يهودي، صورة نمطية، عنصرية، استعمار.

The Image of the Jewish in the Writings of the Maghrebian Thinkers Case Study of Albert Memmi and Malek Bennabi

Abstract

This approach falls in the context of studying the image as a subject of comparative literature, through observing the representations of the Jewish image in two books of Maghrebian thinkers who derived from two different cultures in order to highlight these manifestations at the level of the Self and the Other, in a manner that enables to monitor the role of Western prejudices in the formation of the stereotyped perception of this problematic character. The work focuses on dismantling these stereotypes and analyzing them.

Keywords: Jewish, stereotyped image, racism, colonialism.

L'image du juif dans les écrits des penseurs maghrébins Cas d'Albert Memmi et Malek Bennabi

Résumé

Cette approche s'inscrit dans le contexte de l'image, comme étant l'un des domaines de la littérature comparée, en cherchant à suivre la représentation de l'image du juif dans deux ouvrages de penseurs maghrébins appartenant à deux cultures différentes; afin de mettre en évidence ses manifestations sur le plan du soi et de l'autre de sorte qu'on puisse remarquer le rôle des préjugés occidentaux dans l'élaboration d'une image stéréotype de ce personnage problématique. Ce travail est centré sur le décryptage de l'image stéréotype et de son analyse.

Mots-clés: Juif, image stéréotype, racisme, colonisation.

يعتبر ميدان دراسة الصورة حقلاً معرفياً تنتشعب مجالاته وتتداخل، ذلك أن تشكّل الصورة سواء عن الأنا أو الآخر خاضع لمعطيات ومتغيرات سيكولوجية وعقدية وسوسولوجية كثيرة، وعليه فإن تجلياتها إيجابية كانت أم سلبية هي عملية قصدية.

لا يمكن الحديث عن صورة الآخر بمعزل عن الأنا ولا العكس إذ لا بد من إطار مرجعي تبنى عليه التصورات وإدراك لطبيعة العلاقة مع هذا الآخر فتغدو الصورة ذهنية تتمثل الآخر لا باعتباره حقيقة واقعية بل صيرورة في الخيال تسهم الخبرات والأحكام المسبقة في تشكيلها بنسب متفاوتة، أو كما يقول أحد الباحثين "الصورة الذهنية هي صورة ذاتية للعالم الموضوعي"⁽¹⁾، لذا لا يمكن الحديث عن صورة موحدة داخل المجتمعات لاختلاف التجارب والأيول بين الأفراد، فإذا ما توحّدت وعممت صار ذلك إيذاناً بدخولها ضمن دائرة التتميط.

تعد صورة اليهودي ذات طبيعة إشكالية، فقد خضعت أثناء عملية تشكيلها لإسقاطات كثيرة مثّلت المرجعية العقدية المسيحية المعين الأول لها سواء في الثقافة الغربية أو العربية على شاكلة وصم تلك الشخصية بـ"حب المال، الخداع، المصلحة، الشر"، ورغم ذلك يمكن تسجيل مظهرات متباينة لها في كل محطة تاريخية تبعاً للمتغيرات الحاصلة على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

فقد اعتبرت الشخصية اليهودية خلال فترة القرون الوسطى المعادل الموضوعي للشر نظراً لسيطرة الفكر الكنسي ودوره في صناعة الأفكار وتوجيه الوعي الجمعي، لذا تم استحضار "يهودا الإسخریوطي" بوصفه نموذجاً نمطياً يختزل اليهودي ضمن تصور مسبق، لتسجل لاحقاً مع عصر الأنوار انقلاباً جذرياً بانتقالها من دائرة الشر المطلق إلى دائرة الخير المطلق، إذ غدا اليهودي رمزاً للتسامح والخلاص الإنساني، الأمر الذي يثير الكثير من التساؤلات .

تسعى هذه الدراسة لرصد صورة اليهودي في كتابات مفكرين اثنين يجمعهما الانتماء إلى المجال الجغرافي الواحد وهو بلدان شمال إفريقيا، فضلاً عن الوضعية كمستعمرات إضافة إلى الحقل المعرفي الذي يهدف إلى تفكيك المنظومة الاستعمارية الشمولية وكشف آليات اشتغالها، فإلى أي مدى عكست كتاباتهما رؤية موضوعية عن هذه الشخصية بعيداً عن الأحكام المسبقة؟

1- صورة اليهودي في كتابات ألبير ميمي Albert Memmi:

يعد ألبير ميمي من أبرز الكتاب اليهود ذوي الأصول المغاربية الذين عالجوا مسألة معاداة السامية من منطلق تجربة شخصية، إذ يرصد في كتاباته معاناة الشخصية اليهودية في ظل واقع الشتات وما يولده من حالة اغتراب عن الذات، خاصة إذا أخذنا الوضع الاستعماري بعين الاعتبار، فاليهودي في البلدان العربية حسب تقديره قد عانى من اغتراب مضاعف، أولاً لكونه يهودياً في مجتمع ذي غالبية مسلمة وثانياً لكونه مستعمراً، لذا مثّل مفهوم الانتماء والهوية هاجساً يعد تحديده منطلقاً أساساً لضبط طبيعة العلاقة مع الآخر، مؤكداً في الوقت ذاته على أنّ وضعية اليهودي لا تختلف عن وضعية المضطهد بشكل عام، مثلها مثل وضعية المستعمر أو المرأة أو طبقة البروليتاريا⁽²⁾.

وقد حاول الكاتب الإحاطة بمفهوم اليهودي من مختلف جوانبه في كتابه "صورة ليهودي" Portrait d'un juif الصادر عن مطبوعات غاليمار Gallimard سنة 1962م، بالوقوف أولاً على مأساة أن يكون المرء يهودياً إذ رأى

أن ماهيته آنذاك تكون سابقة لوجوده الفعلي، وفق تصورات معدة سلفاً يفرضها الآخر بشكل قسري ونمطي على الذات اليهودية كيفما كانت وأينما حلت.

يتعمق ألبير ميمي هذه المسألة بحس وجداني بطرح جملة من الأسئلة يستبطن من خلالها حقيقته كفرد يتقاسم قدره المأساوي مع الجماعة التي ينتمي إليها، مشيراً إلى أن كثرة الاحتفالات الدينية لدى اليهود تعكس شكلاً من أشكال المقاومة على الصعيد النفسي رغبة في تجاوز تراجيديا التاريخ، لهذا لطالما أعقبت مصائبهم العظمى احتفالات كثيرة، مسجلاً في ذات السياق فارقاً نوعياً بين العقيدة المسيحية الكاثوليكية والعقيدة اليهودية، إذ يرى أن المسيحية حاملة لفكر مأساوي ذلك أنها تذكر أتباعها دائماً بأن المرض والموت مصيرهم، إذ يقول: "الديانة الكاثوليكية تجذب المسيحي من كمّه مذكّرة إياه: لا تنس أنك من لحم يتعفن وأنّ الوقت يمضي والميعاد يقترب، في حين أنّ اليهودية تذكر أتباعها بالخلّاص الإلهي ومعجزاته من أجل حمايتهم" كيفما كانت مأساتك، مهما كانت أخطاؤك ستحظى بحسن القبول فتمتّع واشكر الله بحرارة واعترف وفرح⁽³⁾، ولعل هذا ما يفسّر تضخّم الأنا عند اليهود واعتبار الغرور صفةً ملازمةً لهم، فهم شعب الله المختار ومن أجلهم سنّت المعجزات.

إنّ التاريخ اليهودي محاط بالمقدّس إلى حد بعيد، يتحوّل فيه الشعب اليهودي من فاعل في تحريك أحداثه إلى موضوع تتجسد من خلاله المحبة الإلهية ومعاني الاصطفاء، ولعل ذلك سبب تعرضه للمصائب المتلاحقة مما جعل طقوس الاحتفال تعبيراً عن الوجه الآخر للمأساة، في هذا الصدد يستشهد الكاتب بما عايشه من أحداث فظيعة أيام المحرقة النازية وكيف أنّ اليهود كانوا يحتفلون لسبب واحد هو أنّ الأفران لم تكن قدر الجميع ليعكس بذلك الطابع السوداوي لتلك الفرحة، وعليه فتاريخ اليهود ليس سوى اجترار طويل لمأساة أن تكون يهودياً.

يلخص الروائي وسرمان Jakob Wassermann الوضع بقوله "عندما لا يكون لليهودي هم يؤرقه سينتهي به المطاف إلى أن يختلقه"⁽⁴⁾، فالشعور بالقلق يمثل ملاذه الأخير ذلك أن عدم الأمان علامة ثابتة في مختلف المحطات التاريخية التي مرّ بها وجوده.

يعتبر ألبير ميمي أنّ السمة المشتركة بين مختلف الحقب التاريخية التي مرّ بها الوجود اليهودي هي أنّ لكلٍ منها عنصراً مزعجاً للاستقرار يتعلّق بمعاداة السامية، فبالنسبة لهرتزل Theodor Herzl كانت قضية دريفوس Dreyfus⁽⁵⁾ وبالنسبة لأنشتاين Albert Einstein كانت معاداة السامية في ألمانيا، أمّا بالنسبة له وليهود تونس فكانت الحرب العالمية الثانية.

تعكس هذه النظرة تمحوراً حول الذات وإصراراً على جعل العنصر اليهودي يمثل كضحية أبدية للوجود الإنساني دون أن يتحمّل ولو جزءاً ضئيلاً من مسؤولية المصير الذي آل إليه، ويتضح ذلك في التركيز على الجانب الدرامي للتاريخ الناتج عن نزعة الاحتقار لليهود واعتبارهم كائنات من الدرجة الثانية سواء خلال فترة القرون الوسطى أو في أوروبا الشرقية وروسيا خلال فترات لاحقة، بل حتى في البلدان العربية الإسلامية التي يعتبرها بعض الدارسين أكثر تسامحاً مع الأقليات إذا ما قورنت بوضعهم في أوروبا المسيحية خلال العصور السابقة، فلا يمكن التعامل مع اليهودي في هذه البلدان سوى على اعتبار أنه كذلك، لكن "اليهودي" المائل في أذهان الآخرين ليس ذاته اليهودي على أرض الواقع، لهذا يقرّ الكاتب بأنّه كان عاجزاً عن إدراك حقيقة ذاته ولم يتحقق له ذلك إلا بعدما صار في فرنسا، ومع ذلك استمرت التصورات المسبقة تؤطر نظرة الآخرين لليهود سواء في الجامعة أو بين الأصدقاء، فعاجلاً أم آجلاً سيدرك كل يهودي حقيقة ذاته الكامنة داخله وحقيقة يهوديته كما

يتصورها الآخرون ليختصر الكاتب ذلك بمقولة تشبه إلى حد بعيد مقولة سيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir: "إذا لم نولد دائماً يهوداً فإننا سنصير كذلك، لكن كل على طريقته"⁽⁶⁾.

يغدو القلق الملازم للذات اليهودية عاملاً مريباً للآخرين في تعاملهم معها إلى درجة أنه يعتبر إلى حد ما شعوراً مبالغاً فيه، فليس اليهودي وحده الضحية في مسرح الحياة فهناك المرأة والزواج وغيرهم، لكن ذلك ليس من شأنه أن يخفف حجم الظلم والشعور بالاضطهاد حسب ألبيير ميمي، بل على العكس من ذلك يجعله أكثر تمرداً لأن وضعاً كهذا من شأنه أن يوجب مشاعر الغضب تجاه المهزلة الإنسانية التي كان للعنصرية ورهاب الأجانب دور في تصعيدها، لذا فإما أن نتقبل كل أشكال المعاناة والاضطهاد جملة وتفصيلاً وإما أن نرفضها بشكل قطعي، إذ لا وجود في هذا المجال لمنزلة بين المنزلتين.

أ- السفر والشتات كقدر حتمي في رحلة اكتشاف الذات:

إن الشخصية اليهودية شخصية محاطة بإرث هائل من التاريخ المأساوي وهذا ما يخلق اضطراباً على صعيد تصور الذات حول نفسها أو تصور الآخرين عنها، لذا يغدو الوقوف عند حافز Motif السفر والانتقال عنصراً جوهرياً لفهم طبيعتها، فاليهودي يميل بطبعه إلى ذلك رغبة في الانفصال عن وضعه الراهن وبحثاً عن واقع أفضل.

يتذكر ألبيير ميمي بعض التفاصيل عن ماضيه في تونس ليسجل كيف كانت عائلته تخرج آخر كل أسبوع في نزهة بالسيارة مبتعدة مئات الكيلومترات عن مكان سكناها لا لشيء سوى لشرب القهوة وإلقاء نظرة شاردة على المكان لتعود أدراجها لاحقاً مع حلول الظلام.

تصور الكاتب في البدء أن هذا الطبع يعود إلى كونه ينتمي إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط التي يعرف أهلها بحرصهم على دفع العلاقات، ليكتشف لاحقاً أن غياب هذا الأمر عند جيرانهم المسلمين ينفي الفرضية من أساسها.

يستحضر في المقابل بعض الأعمال الأدبية لكاتب يهود وغير يهود مثل هنري ميلر Henry Miller ولويس فرديناند سلين Louis-Ferdinand Céline الذين التفتوا إلى هذا المركب الذي يدفع الشخصية اليهودية إلى الابتعاد نتيجة الخوف ممن يشاركها المواطنة، ليعزو في الوقت ذاته النجاح المتكرر لمفكرين ورجال المال اليهود إلى توفر هذه الخصلة، وكأن هذه النتيجة شكل من أشكال التعويض أو الانتقام.

يستعين ألبيير ميمي بالتحليل النفسي عند فرويد Freud لإضاءة هذه الجزئية التي تعكس إلى حد ما تصوراً يتراوح بين الوراثة واللعنة، لكن المسألة تبقى عصية على التوضيح نظراً للحمولة التاريخية الضاغطة التي تولد لا شعورياً مشاعر الخوف والقلق من المصير الذي ينتظر اليهودي، ولعل رؤية الشتات من منظور خارجي تسهم في فهم هذه الوضعية، ليعود مرة أخرى بذاكرته إلى تونس أين يستحضر قصصاً عن وحشية القتل الذي اقترّف بحق اليهود بأوامر من البايات، ورغم أنه يشير إلى أن الباحثين قد أثبتوا أنها كانت حالات قليلة مقارنة بالمنحى العام إلا أنه يصّر على اعتبارها "ذكريات مرعبة ظلت تتناقلها الأجيال عن حقبة سوداء مثل فيها الاستبداد والاضطهاد طابعاً عاماً"⁽⁷⁾.

تحدث المفارقة على صعيد هذا الحكم الذي توصل إليه، فمن ناحية يشير إلى أنها كانت حالات قليلة ومع ذلك ينطلق منها ليصدر حكماً يعممه على الحقبة التاريخية بأكملها، كما يعاب عليه تغييبه للسياقات التاريخية في

تتاول هذه الأحداث، فهو يقدم لنا النتيجة دون الإشارة إلى حيثياتها، الأمر الذي ينفى الموضوعية عن الأحكام التي توصل إليها .

ينتقد ألبير ميمي من يصرّ على اختزال معاناة اليهود في القسم الأوروبي بمعنى "اليهود الإشكناز" Ashkénazes⁽⁸⁾، سواء بتصور أن وضعية يهود البلاد الإسلامية كانت مثالية أو نتيجة انحصار نظرة هؤلاء المؤرخين في المحرقة النازية مما جعلهم عاجزين عن تصور وجود شيء مماثل في مكان آخر من العالم، ولا يسعنا فهم هذه المسألة إلا بإلقاء نظرة فاحصة على وضعية "اليهود السفاراد" Sépharades⁽⁹⁾ داخل المجتمع الإسرائيلي، فنتيجة لعدم مساواتهم في الحقوق مع اليهود الإشكناز سعى البعض لخلق أسطورة مضادة قائمة على الاضطهاد الإسلامي المتأصل للتأكيد على مسلمة أن "يهود إسرائيل المنحدرين من البلدان العربية هم لاجئون من الاضطهاد"⁽¹⁰⁾، وعليه فإن هدف الكاتب من تبني هذا الموقف هو التأكيد على أصالة فكرة معاداة السامية لدى العرب منذ القدم، في حين أن الباحث المتخصص في مجال تاريخ اليهود مارك.ر. كوهين Mark R. Cohen قد أثبت في كتابه "بين الهلال والصليب وضع اليهود في القرون الوسطى" أن هذه الفكرة قد ظهرت في المجتمعات العربية خلال فترة متأخرة من القرن التاسع عشر على يد المسيحيين العرب ثم ازدادت حدتها مع احتدام الصراع العربي الإسرائيلي سنة 1948م وما تلاها.

لا يغادر ألبير ميمي هذه الفكرة سريعاً بل ينطلق منها لجعلها سبباً مباشراً في عدم انضمام اليهود إلى الحركة الوطنية في تونس واختيارهم الهجرة نحو فرنسا أو إسرائيل، رغم التطمينات التي كانوا يتلقونها، ويخلص إلى أن سبب مأساة اليهود والاضطهاد الذي لظالموا تعرضوا له يكمن في الحس العنصري المعادي لهم في مختلف بقاع العالم، فحتى الدول التي لم يسبق لها أن مارست العنف تجاههم كان ذلك بسبب غيابهم عن أراضيها، وبناءً على ذلك يعتبر غير اليهود متواطئين في خلق هذا العالم الذي يدرج اليهودي في دائرة الشر ويدفعه إلى التخفي تجنباً للتعرض للأذى، إذ يقول: "معاداة السامية هي المرض، لكن يبقى أن لكل مجتمع مجانيته ومرضاه"⁽¹¹⁾، لينتهي به المطاف إلى الإقرار بأن اليهودي كائن إشكالي، يعتبر مشكلة بالنسبة لذاته وللآخرين على حد سواء .

ب- الانفصال عن الآخر نتيجة حتمية للاختلاف:

لقد أسهم الفكر الكنسي خلال القرون الوسطى في تشويه صورة اليهودي على الصعيد الديني والديني، فهو متهم بشكل دائم باعتباره سبباً في موت المسيح "إله" نتيجة الخيانة، ليتنامى هذا الشعور السلبي مفسحاً المجال أمام المخيلة الشعبية لاختلاق المزيد من الشرور وتعميمها.

إن اليهودي حسب ألبير ميمي متهم من طرف خصومه دون أن تتاح له فرصة للدفاع عن نفسه وإنكار التهم المنسوبة إليه منذ أكثر من ألفي سنة لا شيء سوى أن الخصم قرر ذلك، لذا ظل وضعه مضطرباً يتراوح بين الهامشية والإقصاء خاصة حين تتحالف السلطة السياسية مع السلطة الدينية لتصعيد الوضع.

لعل هذا ما جعل اليهود مجبرين على الإقامة في أحياء منعزلة خاصة بهم يطلق عليها اسم **الجيتوهات** ⁽¹²⁾ ghettos Les، ومع ذلك بقيت إمكانية تعرضهم للاعتداء أو الاغتيال واردة بشكل دائم، ذلك أن اعتبارهم يهوداً وصمة تضرر اتهاماً ولوماً، فأن تكون يهودياً يعني بالضرورة أن تكون منفصلاً عن ذاتك وعن الآخرين، وبناءً على هذا المعطى يبدي الكاتب عدم استغرابه من كون فرويد يهودياً لأن اليهود أقدر في نظره على فهم الانسجام والاضطراب داخل النفس البشرية في تفاعلها مع ذاتها ومع الآخرين.

يتساءل ألبير ميمي إن كان اليهودي مختلفاً فعلاً، وإن كان هذا ما يولد حالة الانفصال والانعزال عن الآخرين؟ معتبراً أن الإجابة عن هذا التساؤل ليست على قدر كبير من الأهمية طالما أن الاختلاف يبقى إشكالية في حين أن الانعزال والانفصال عن الآخرين حقيقة واقعة.

بالنسبة له لم تسعفه تجربته الشخصية في تونس لإدراك مفهوم الاختلاف باكراً فقد نشأ في مجتمع مغلق تتشابه جماعته لذا كان من السهل عليه إدراك مفهوم الانسجام، ليتعرف على الاختلاف لاحقاً حين انتقل إلى أوروبا.

تأخذ مأساة اليهود في تونس حسب رأيه أبعاداً مضاعفة إذ تكمن في أن تكون يهودياً ومستعمراً في الوقت ذاته⁽¹³⁾، وعليه فالانفصال كمعطى واقعي يغذي الاختلاف في حين أن الاختلاف كفرضية يشرعن ويبرر الانفصال، وفي ظل هذا الوضع صار بديهياً أن يتصور اليهودي نفسه مختلفاً عن الآخرين وأن يعتبره هؤلاء كذلك، خاصة مع تنامي معاداة السامية.

ج- اليهودي بوصفه شخصية أسطورية:

يقول مرسيا إلياد **Mircea Eliade** إن "الأساطير تتخط وإن الرموز تدخل طي الزمن والعلمنة، ولكنها لا تزول أبداً حتى في أشد الحضارات ميلاً إلى الوضعية"⁽¹⁴⁾.

يشيد الإنسان تصورات عن الآخر عادة انطلاقاً من معطيات تاريخية، ونظراً لأسباب سياسية ودينية غالباً يعمد إلى إخراجها من دائرة التاريخ لإدخاله مجال الأسطوري حين يختصره ضمن تصور اختزالي ثابت يتجاوز مفهوم الزمن، ولعل هذا ما تعرضت له الشخصية اليهودية في الفكر المسيحي، إذ تحولت بفعل الصور النمطية والأفكار المسبقة وتراكمات الأحكام المعيارية والتصورات المتوارثة عبر الأجيال إلى شخصية أسطورية .

فغالباً ما يتم استحضارها حسب التصور المسيحي مرفقة بجملة من الأحكام الجاهزة كالجشع والخيانة والغش، وقد جسدت الأعمال الأدبية هذا الجانب بشكل جلي سواء عند شكسبير أو موليير أو فولتير وجيد، إذ تبدو الشخصيات المسيحية إيجابية دائماً في حين يمثل اليهودي الشر والخداع بشكل مطلق، فحتى في إطار علاقة اليهودي بالآخرين تغدو عبارة "لي صديق يهودي" عبارة تضرر المعنى أكثر مما تصرح به، إذ تحيل في نظر ألبير ميمي على معنى تجاوز كونك تنتمي إلى جماعة منبوذة، لذا فتقبلك يعني أنك مختلف. يتكون التصور الأسطوري للشخصية اليهودية من عدة أبعاد، لعل أهمها ما يلي:

1- الشكل البيولوجي:

كثيراً ما تلصق بالشخصية اليهودية خصائص فيزيولوجية معينة تجعل من التعرف عليها ضمن الجماعة المختلفة أمراً حاصلاً بالضرورة، كأن يتم ذلك انطلاقاً من تحديد شكل الأنف الكبير أو الشفاه الغليظة، أو حتى مسألة الختان.

وفي الوقت الذي يرى الاتجاه المعادي للسامية في تلك السمات دلالة حتمية على كون الشخص يهودياً ينفي ألبير ميمي هذا الطرح جملةً وتفصيلاً عبر تفكيك جزئياته.

إذ ينطلق من مسلمة أن الوقوف على الاختلافات الشكلية بين الشخصية اليهودية التي تعيش في وسط مختلف عن بيئتها الأصلية (كأن تكون البيئة فرنسية) أمر حتمي، في حين أنه لا يمكن رصد تلك الفوارق إذا ما كان اليهودي قد نشأ وترعرع في بيئته الأصلية، ويضرب الكاتب مثلاً على ذلك التماثل الحاصل بين يهود ومسلمي تونس.

كما يستبعد في سياق آخر أن يكون الجانب البيولوجي هو المحدد للفروقات الحاصلة بين الشعوب مركزاً على الجوانب الثقافية والدينية واللغوية (الأنماط الاجتماعية كالعادات والتقاليد..)، خاصةً إذا تعلّق الأمر بالتعايش ضمن مجموعات بشرية متعددة الإثنيات، ليتوصّل في الختام إلى ما مفاده أنّ اليهود يتعدّدون فيما بينهم فهناك اليهود الصينيون والسود والأمزيغ وحتى الأرتك⁽¹⁵⁾.

ورغبةً منه في تفسير هذه الصورة البيولوجية النمطية يعتبر أن الوصف الكلاسيكي والوحدوي لليهودي ليس سوى نوع من العمى الأوروبي أو النظرة العنصرية القاصرة التي لا تجيد النظر إلى ما هو أبعد منها نتيجة تمركزها حول ذاتها، ما يدفعها إلى السخرية واحتقار ما لا تراه.

يذهب ألبير ميمي إلى أبعد من ذلك في تفسير هذه الجوانب البيولوجية التي اعتبرها الفكر الأوروبي انطلاقاً من نزعة المعادية للسامية أساساً لتحديد اليهودي واختزاله في صورة نمطية، إذ رأى أنّ مردّها إلى حالة اليأس الاجتماعي الناتج عن الوضع الاستعماري" فصورة اليهودي الصغير ليست في حقيقة الأمر سوى صورة سخيفة عن حالة اليأس الناتجة عن تاريخ اجتماعي طويل من الاضطهاد، وفي الوقت الذي يستطيع أحدنا تجاوز هذه الوضعية الاستبدادية فإنّ أبناءه لن يكونوا قصاراً ولا أصحاب سمّة مرضية مفرطة"⁽¹⁶⁾.

2- الشكل الاقتصادي:

يُعتبر البعد الاقتصادي من أقدم المحدّدات التي اعتمدتها مختلف الشعوب في تشكيل تصوّراتها عن اليهود، فمنذ العصور القديمة عُرف اليهود بممارستهم للتجارة في أجواء تنافسية مع الأمم الأخرى كالفينيقيين، ما أثار حولهم الكثير من الأحقاد حيث اعتبروا مهوسين بالمال وعلى استعداد لفعل أي شيء من أجل تحصيله.

يؤكد ألبير ميمي على أثر ذلك في تشكيل صورة اليهودي خلال فترة القرون الوسطى، إذ مثّل في الوعي الجمعي الأوروبي بوصفه "مرابٍ يستحق الانتقام"، حتى أنّ تسمية يهودي صارت تعني التاجر في ألمانيا، وقد عمد الكتاب لاحقاً إلى استثمار هذه الصورة في أدبهم ما عزّز من انتشارها على نطاق واسع نظراً لقدرة الأدب على تخطي الحدود الجغرافية والقومية، فمثلاً ابتكر شكسبير Shakespeare في مسرحيته "تاجر البندقية" The Merchant of Venice شخصية شايлок Shylock الذي يطالب ضحيته برطل من لحمه كتعويض في حال عجزه عن الإيفاء بالدين خلال الآجال المحددة، أمّا فيكتور هيجو Victor Hugo فلم يتردّد في تصوير شخصية اليهودي الخائن Deutz قصيدة À l'homme qui a livré une femme⁽¹⁷⁾ وشى بإحدى الأميرات أثناء هروبها مقابل خمسمائة ألف فرنك، وكأنّه بذلك يبرز مساعي اليهود من أجل تدنيس وتحطيم نبل الطبقة المالكة.

ييدي الكاتب امتعاضه من بعض الشخصيات اليهودية التي اقترن اسمها في العالم بالثروة والسلطة الاقتصادية كعائلة روتشيلد Rothschild، لكنّه في الوقت ذاته يشير إلى ما يثيره تردد هذه الأسماء في نفسه من مشاعر الفخر والاعتزاز لكونها يهودية أثبتت حضورها في أوساط غير يهودية.

يتجلى الوهم حين يتحوّل اليهودي إلى صورة كاريكاتورية همّها تحصيل المال بأسهل الطرق وأخبثها، ما يجعل أيّ اهتمام بمصلحته الخاصة مبرراً لاتهامه من قبل الآخرين، دون أن يقتضي ذلك تسجيل الفروقات على الصعيد الاجتماعي.

يعيب ألبير ميمي على الغربيين مساعيهم الرامية إلى إدانة اليهود بسبب ماضيهم الطويل منذ العصور القديمة معتقداً أنّ هذا المنحى في الحكم يتطلّب أن يُدان الإيطاليون اليوم بسبب ممارسات الإمبراطورية الرومانية قديماً

وجرائمها التوسعية، إضافة إلى الكنيسة المسيحية التي لطالما وفّرت الغطاء الديني لمثل تلك الممارسات، متسائلاً في الوقت ذاته عن مدى تميز اليهود في اشتغالهم بالتجارة خلال تلك العصور عن غيرهم من شعوب البحر المتوسط كاليونانيين والفينيقيين ويستحضر في هذا الصدد ما صرح به أحد المختصين في تاريخ العمل من أن اليهود خلال تلك الفترة كانوا يشتغلون أكثر في مجالات الزراعة والحرف، إذ يقول "إنّ الإسرائيليين مثّلوا الشعب الوحيد خلال العصور القديمة الذي قاوم تأثير الفكرة الصوفية الشرقية التي تدين العمل باعتباره مصدراً لكل الشرور، فاليهود أجّلوا العمل دائماً" (18)، دون أن يشير إلى أنّ ذلك كان تحت تأثير عقيدة الاستخلاف في الأرض وليس تقديساً للعمل في حد ذاته.

من ناحية أخرى يحتاج هذا الحكم إلى مزيد من التوضيح إذ ليس المقصود بالعمل كل نشاط يقوم به المرء من شأنه أن يؤمّن له استمرار الحياة وإلا كيف استمرت تلك الشعوب لو أنّها كانت ترفض العمل بشكل مطلق، فالمقصود في هذه الحالة تبني تلك الأمم لمعايير تصنيفية تحدّد وفقها منزلة أصحاب النشاط العضلي من غيرهم، إلّا أنّ حصر هذه الفكرة في الشرق فيه مبالغة ومجانبة للصواب ترمي بطريقة غير مباشرة إلى اعتبار الشرقيين أول من استحدث نظام الرّق بوصفه أدنى مرتبة في السلم الاجتماعي وفق التصور التراتبي السائد.

بالعودة إلى الفكر اليوناني القديم نجد أنّ التصور حول العمل كان يأخذ بعين الاعتبار التمييز بين الأحرار والعبيد من ناحية، والتمييز بين العمل الفكري والعمل العضلي من ناحية أخرى، فالعمل العضلي المأجور يشبه إلى حد ما الاستعباد لأنّه يقيد صاحبه ويعيقه عن أداء باقي واجباته كمواطن حسب أرسطو، في الوقت الذي اعتبر فيه نظام الاستعباد شيئاً طبيعياً بل ضرورياً في المجتمع، كما يحيل العمل على معنى الألم والعقوبة (19)، ولعلّ أسطورة برومثيوس تكشف في جانب ما عن هذه الرؤيا.

ينبغي الإشارة هنا إلى أنّ هذا التصنيف التراتبي في الفكر اليوناني القديم قد انتقل لاحقاً إلى الفكر الروماني والمسيحي، إذ لطالما تمّ التمييز بين منزلة البشر بناءً على نوعية النشاط الذي يمارسونه.

يشير ألبير ميمي إلى أنّه في جانب آخر كان هناك يهود فقراء تعرضوا للخذلان من طرف اليهود الأغنياء، لتأتي الكارثة النازية لاحقاً فتجرّع الجميع طعم المأساة، فبالنسبة له تحيل يهوديته على تلك الشوارع المتعرّجة للحارة في تونس أو الملاح في المغرب والتي يثير تذكّرها بداخله مشاعر الحنين والشفقة والثورة، ففي الشرق كان البؤس والفقر الأكثر حضوراً في حياة اليهودي لا الثروة، ما يثبت أنّ صورة اليهودي الغني هي صناعة غربية لا يمكن تعميمها في فضاء عالمي.

يعارض في سياق آخر الفكرة القائلة بأنّ اليهودية هي النواة الأولى للرأسمالية، وأنّ اليهود يسيطرون على مفاتيح الاقتصاد العالمي، صحيح أنّ النظام الجديد أتاح لهم الدخول إلى مجالات اقتصادية أكثر لكن هذا لا يعني أنّهم متواجدون في كل المجالات، فأصحاب هذا الطرح ينطلقون من فكرة جاهزة يريدون إثباتها لمجرد توفر بعض النقاط المشتركة، فلو أنّ أحداً أراد الربط بين البروتستانتية أو الإسلام والفكر الماركسي لما وجد عنة في ذلك (20)، مؤكداً في الوقت ذاته على أنّ الفكر الغربي الذي يحاول فرض تصور اقتصادي حول الشخصية اليهودية يفتر إلى الإحصائيات ويعتمد روايات تاريخية متضاربة إلى حد بعيد، لذا فإنّ المشكلة اليهودية في نظره تتجاوز الحل وفق التصور الطبقي من المنظور الماركسي لأنّ معاداة السامية ليست شكلاً من أشكال الصراع الطبقي بل هي وليدة عنصرية أوروبية استعمارية، فليس اختلاف اليهود على الصعيد البيولوجي أو الاقتصادي هو ما يؤرق الغربي بل هو وجوده في حد ذاته.

يتوصل الكاتب إلى فكرة مفادها أن اتهام اليهود بقتل المسيح كان يرمي أساساً إلى تبرير القضاء عليهم، وأن عدم تحقق ذلك بشكل واقعي لا يبطل الفكرة بل يثبتها فهو امتداد لتفكير المستعمر، فالقضاء على المستعمر يلغي وجوده لذا ينبغي إحداث توازن للحفاظ على امتيازاته ومنافعه، وهي الميكانيزمات ذاتها في مجال العلاقة بين أرباب العمل والعمال.

حاول ألبير ميمي من خلال هذا العمل تفكيك الرؤيا العنصرية الغربية التي جعلت من اليهودي شخصية أسطورية يمكن تحديد ملامحها بشكل عام من خلال الأبعاد البيولوجية والاقتصادية لكنه في المقابل ساهم في خلق شخصية لا تقل أسطورية عن الأولى حين جعل من اليهودي الضحية الأبدية لغيره من البشر، إذ أكد مراراً أن الخطاب المعادي للسامية موجود لدى مختلف الأمم وإن بنسب متفاوتة، كما أنه يحمل العرب جانباً من المسؤولية في المحرقة النازية من منطلق أنهم مصدر الفكرة التي تنامت لاحقاً في ألمانيا نتيجة توزيع المنظمة العربية لمنشورات تحذر من مساعي اليهود للسيطرة على العالم والقضاء على كل الشعوب الأخرى، يبدو هذا الطرح من الوهلة الأولى غير منطقي ذلك أن الفكر الغربي منذ القرون الوسطى يزخر بهذه الطروحات التي تشيطن اليهود وتحصرهم في دائرة الشر، لذا فإن الكاتب ناقد إلى حد ما على الجانب الشرقي من ماضيه من خلال تأكيده الدائم على طابعه المأساوي رغبة في الانفصال عنه.

2- صورة اليهودي في كتابات مالك بن نبي:

يُعتبر مالك بن نبي واحداً من أعلام الفكر النهضوي التنويري في المغرب العربي، إذ راهن في مشروعه على الإنسان ودوره في صناعة الحضارة بعد تحصيله للقدر الكافي من الوعي بشرطه التاريخي، لذا انطلق من تحليله للمعطيات التاريخية وفق رؤية استشرافية لما بعد الاستعمار، كما مكّنه حسه النقدي من تفحص مشروع النهضة من الداخل بشكل موضوعي راصداً النقائص الكامنة على صعيد الرؤيا والمنهج .

شكل موضوع الاستعمار الشاغل الأكبر لمالك بن نبي إذ اعتبره "تكسة في تاريخ الإنسانية"، مؤكداً على أن تفكيك هذا النسق يشترط أولاً نزع من أذهاننا والتحرر العقلي من وسائله الرامية لجعل الفرد عاجزاً عن تحسين ظروف حياته، أي القضاء على ما أسماه بالقابلية للاستعمار.

مثّلت المشكلة اليهودية بالنسبة له جزءاً من هذه القابلية للاستعمار وقد جسّد هذا الطرح في كتابه "وجهة العالم الإسلامي" في جزئه الثاني، إذ انطلق من فكرتين أساسيتين:

- الأولى أن اليهود قد توجّهوا بعد الشتات (الدياسپورا) **Diaspora** إلى أوروبا بشكل قصدي. أما الثانية فأنهم بفعل ذلك تمكّنوا من إعادة صياغة الفكر الغربي بما يتماشى مع رغبتهم الجامحة في السيطرة على العالم.

حاول مالك بن نبي تقديم قراءة تفكيكية للفكر الغربي انطلاقاً من كشف السر الخفي الذي يجعله ينتظم ضمن نسق واحد، ويندرج هدفه في اعتبار هذا العمل تركة للجيل القادم تضعه على الطريق الصحيح لفهم العالم والتعامل مع مشكلاته.

أ- اليهودي يخط تاريخاً جديداً لأوروبا الحديثة:

اعتبر مالك بن نبي وصول اليهود إلى أوروبا بعد الشتات وتهديم الهيكل أهم حدث ميز تاريخها الحديث، ذلك أن الوجهة لم تكن عبثية بقدر ما مثّلت امتداداً لمخططات وأهداف معدة سلفاً، فالشرق في تصوّر اليهودي يفتح

على ذكريات مؤلمة لأسلافه الذين كانوا يعيشون في مصر الفرعونية والحضارة الآشورية في ظل شروط إنسانية متدنية إذ كانوا عبيداً منبوذين، وعليه "فاليهودي بكل بساطة لا يريد أن يستعيد تجربة آبائه" (21).

لكن البحوث التاريخية المتخصصة لم تجمع حول الوجهة التي اختارها اليهود بعد تهديم الهيكل من طرف حملة "تيتوس" Titus سنة 70 ميلادية والتي أعقبت الثورة التي قاموا بها ضد السلطات الرومانية، إذ يؤكد المؤرخ أوروسيوس على تفرقهم وشتاتهم دون أن يوضح المناطق التي قصدوها إثر ذلك (22).

يضيف مالك بن نبي سبباً آخر كان بمثابة الدافع الموضوعي لاختيار أوروبا يتمثل في طبيعة الأوروبي من حيث علاقته الهشة بالحضارة ما جعله كالعجين الرخو الذي تسهل قولبته وتشكيله، إذ يعتبره ابن نشأته الأولى بغير ثقافة ولا ماض، على خلاف الشرقي الذي امتزج سلوكه بثقافات الأمم القديمة على اختلافها.

يفتح هذا الحكم جبهات عدة للرد فمن ناحية يبدو غير منصف إلى حد ما حين ينطلق من إطار المفاضلة ليتعدى ذلك إلى التعميم، ومن ناحية أخرى يفترض مالك بن نبي أن اليهود ينحدرون من أصل واحد وأن تفكيرهم قد أخذ المنحى ذاته، في حين أن الحقيقة التاريخية تثبت توزع يهود الشتات في مختلف بقاع المعمورة مع تسجيل بعض الفروقات الجذرية بينهم على شتى الأصعدة .

بناءً على ما سبق يؤكد الكاتب على الاستقبال الحار الذي حظي به اليهود من قبل الأوروبيين الذين أبدوا حفاوة وحسن ضيافة في التعامل مع الوافدين الجدد، إذ يقول: "جاؤوا إلى أوروبا مشتتين منبوذين غير فاتحين، لكن الشعب الأوروبي أوسع لهم الإقامة والضيافة، وغدوا في النهاية هم المسيرين الحقيقيين للعمل الأوروبي والثقافة والسياسة والحياة الاقتصادية" (23)، في حين أننا لو عدنا إلى الدراسات التاريخية حول اليهود لوجدنا أنها تجمع على أن علاقتهم بالأوروبيين المسيحيين كانت علاقة عدااء وتصادم غالباً خاصة فيما يتعلق بالريعية، سواء خلال العهد الروماني أو فترة القرون الوسطى التي تميزت بسيطرة الفكر الكنسي الساعي لتكريس عزلهم وإقصائهم، أما الاحتفاء فقد كان ب فئة الأغنياء منهم على وجه الخصوص، إذ عمل الملوك على تقريبهم كلما وجدوا مصلحة في ذلك كإقراضهم أو دفع ديونهم أو جمع الضرائب، وكثيراً ما كان ذلك يأتي على حساب الرعية.

حاول مالك بن نبي التعمق في قراءة التاريخ من خلال الوقوف على مساحات الصمت فيه، فسلط الضوء على الأسئلة التي لم يجروا المؤرخون على طرحها مؤكداً على أن تحليلها من شأنه الكشف عن الوجه الحقيقي للتاريخ مما يمهّد لبناء تصور أدق حول العالم، ومن أبرز هذه الأسئلة التي ظلت مغيبة في تقديره "لماذا احتفظت روما لنفسها حينما هزمت أثينا بالثقافة المنشأة والمدارس على عكس ما فعلت بقرطاجة حين انهارت أمامها فمسحت المدينة الفينيقية وهدمتها على آخرها ولم تترك من حضارتها ولا من ثقافتها أيما أثر" (24).

تشير هذه الجزئية من ناحية إلى امتلاك مالك بن نبي لقدرة تمكنه من رؤية الظواهر في كليتها ما يجعله قادراً على قراءة تفاصيلها وسبر أغوارها دون الاكتفاء بظاهرها، إذ ينطلق من هذه الملاحظة ليرصد الفارق النوعي المضمّر بين الحديثين ويتوصل إلى أن النفوذ اليهودي في مراكز صناعة القرار الروماني كان له دور في توجيه سياسة الإمبراطورية، فنظراً للخطر الذي مارسه الفينيقيون على تجارة اليهود كان هذا الرد العنيف لمحو كل آثارهم مستقبلاً.

انطلق الكاتب في طرحه هذا من اعتبار أن اليهود ينتمون إلى طبقة اجتماعية تتوفر على إمكانيات مادية ضخمة مكنتها من توجيه السياسة، لا بل إن الوقوف على الطريقة الوحشية التي تعاملت بها روما مع الحضارة القرطاجية يفسر ضمن إطار فهم نفسية اليهود وحقدهم الدفين على الشرق، لكن السؤال الذي يمكن طرحه في

المقابل هو: ألا يمكن اعتبار ذلك راجعاً إلى تمركز الفكر الغربي حول ذاته وطبيعة العلاقة بين الشرق والغرب، أليست حملات الاسكندر المقدوني دليلاً واضحاً على رغبة الغرب في تخليد تاريخ واحد هو تاريخ أوروبا والغاء الشرق؟

كان الاحتمال الذي قدمه الكاتب سعيه مقنعاً إلى حد بعيد لو أنه أرفق بأدلة ملموسة تثبت صحته، ذلك أنه حتى على الصعيد التاريخي يمكن تسجيل تفاوت ملحوظ في سياسة روما تجاه اليهود.

يفترض مالك بن نبي أن رحلة اليهودي في الفضاء الأوروبي كانت تسير وفق مخطط أعد سلفاً للوصول إلى قمة الهرم وبسط السيطرة على العالم، لذا اتسمت سياسته بالمرونة من أجل تحقيق الهدف المنشود، فهو حسب نظره "الوحيد الذي عرف كيف يجمع نشاطاته في هدف واحد هو تنظيمها الداخلي، بمعنى أن يوظف مختلف الإنجازات في خدمة الهدف النهائي الذي يسعى إليه مجتمع جيد التنظيم" (25).

ينتمي الشعب اليهودي وفق تصور بن نبي إلى نسق واحد منسجم، في حين أن الأمر على الصعيد الواقعي مختلف، فاليهود متعدّدو الأعراق والانتماءات وما يفرقهم أكثر ممّا يجمعهم، ولعلّ التّصور القائل بوحدة الشخصية أو الشعب اليهودي وليد الإيديولوجيا الصهيونية في حد ذاتها، إذ أشار الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه "من هو اليهودي" إلى أن الجماعات اليهودية لم تمثل وحدة في بلدان الشتات بقدر ما كانت عبارة عن جماعات وظيفية (26).

ب- تحولات الشخصية اليهودية:

يعتبر مالك بن نبي ظهور الإسلام حدثاً عرضياً أعاق اليهود مرحلياً عن تحقيق هدفهم، لكن ذلك لم يحل دون استثمارهم لوضعهم في البلدان الإسلامية، حيث عملوا على تمويل الجيوش خلال فترة الفتوحات الإسلامية، كما مكّنهم ذلك من النقاط عناصر الحضارة والاستفادة من المناخ الفكري في الشرق تمهيداً لتطبيق مخططاتهم في الغرب.

في المقابل لم تكن أوروبا الفردوس المفقود لليهودي، ذلك أن فردوسه هو ذلك الوطن الذي خلفه وراءه لكنه لم يرغب يوماً عن ذاكرته، وبما أن الأرضية لم تكن مهيئة لاستقباله كما هو، كان لزاماً عليه أن يتأقلم حتى يتمكّن من تحقيق أهدافه، وعلى هذا الأساس يسجل مالك بن نبي الأنماط المختلفة لتظاهرات الشخصية اليهودية في أوروبا.

1- اليهودي التائه:

لم يكن الأوروبي خالي الذهن من التصورات حول اليهودي، فقد تشرب من الديانة المسيحية الفكر المعادي له، لذا كان على اليهودي أن يأخذ هذه الجزئية بعين الاعتبار إن كان ينوي تمتين ارتباطه بالمكان ما ألزمه الانعزال عن المجتمع داخل أحياء خاصة.

ألمح مالك بن نبي إلى صفة فيه مكنته من تقبل هذا الوضع الذي رغم قساوته التي قد تبدو لنا إلا أنه لم ينتقص من ذاته ولم يمس كيانه إذ يقول: "...فاليهودي ليست لديه وراء علاقته العائلية والعنصرية مشاعر، وإنما هي أفكار وبرامج، وفي إطار أفكاره وبرامجه لا يبحث عن وطن جديد" (27).

يبدو هذا الحكم مبالغاً فيه إلى حد ما، ففي الكاتب كل المشاعر عن اليهودي يخرج من دائرة المخلوق الإنساني، لا بل يلغي الفرضية التي اعتبرها أساساً لعدم توجهه إلى الشرق، فإن كان الأمر مجرد برامج فبم يفسر ارتباطه وتمسكه بماضي أسلافه؟.

يتعزز هذا البعد في الحكم حين يلحق الكاتب هذا التحليل بوصف لليهود مستوحى من الإنجيل يكمن في اعتبارهم "الشعب ذو الرقبة القاسية" إذ لا نجد مبرراً له ضمن السياق الذي ورد فيه سوى أن الكاتب ناقد عليهم، ولعل ذلك يفسر بتوقيت كتابة هذا العمل سنة 1952م ما يعني أنه أعقب قيام الكيان الصهيوني في فلسطين بأربع سنوات.

يتطرق في جانب آخر إلى السمات النفسية للشخصية اليهودية فيرى أنها معقدة يلفها الكثير من الغموض الذي يدفعها إلى الانعزال، وهو في كل ذلك يتخذ من المرجعية المسيحية منطلقاً للحكم. أمام هذه الغرائبية عمدت المخيلة الشعبية إلى صياغة صورة جديدة تختلف عن سابقتها المتمحورة أساساً حول البعد السلبي كالجشع والكفر لتنتقل بها إلى ضفة أخرى يغلب عليها الحس العاطفي لتتجلى "أسطورة اليهودي الهائم على وجهه"، وكانت الغاية من وراء ذلك هي إثارة الشفقة وفق مبدأ نظرية التطهير عند أرسطو" إذ كانوا يقصونها حكايات لأطفالهم الصغار يثيرون فيها المصير المؤلم⁽²⁸⁾، لكن الكاتب لم يوضح لنا آليات هذا الانتقال وأسبابه.

2- اليهودي المثقف:

يعتبر مالك بن نبي اليهودي بمثابة العقل المفجر للأسس الفكرية لعصر الأنوار، إذ عقب الاضطهاد الذي لحقه خلال العصور الوسطى جاءت فترة الخلاص نتيجة الإعلاء من شأن العقل من ناحية والدور الاقتصادي الذي لعبه من ناحية أخرى، فكان الشعور العام لدى المثقفين الأوروبيين هو الترحيب به، مما أدى إلى بروز مفكرين يهود في مجالات معرفية مختلفة لا بل تبوؤوا صدارتها.

يهدف الكاتب عبر استحضاره لهذا المعطى إلى تأصيل فكرة الاستعمار في الفكر اليهودي إذ يقول: "مساهمة اليهود في تكوين الأفكار في أوروبا وعلى الخصوص فكرة الاستعمار، إذ نجدها ردة فعل خاصة في العقلية اليهودية أشرنا إليها قبل وهي تركز على الكراهية لكل ما هو آسيوي، وهي ردة فعل مزدوجة الكراهية لآسيا وللإسلام معاً"⁽²⁹⁾.

لقد أسهمت عوامل كثيرة في إحداث القبول العام لليهود في الأوساط الأوروبية لعل أبرزها التوجه العام نحو العلمنة والسعي لفصل الدين عن الدولة، ما أدى إلى الضعف النسبي للوازع الديني، فضلاً عن اعتبار اليهود حلقة الوصل بين الشرق والغرب فقد لعبوا دور الوسيط الحضاري في نقل الموروث اليوناني القديم إلى أوروبا الحديثة، أما اعتبار فكرة الاستعمار وليدة الفكر اليهودي والرغبة في الانتقام من الشرق بشكل مطلق فتحتاج إلى مراجعة، ذلك أنه إذا اعتبرنا الحقد على آسيا والإسلام هو المولد لها بحكم أنهما يذكران بمعاناة اليهود ومأساتهم خلال العصور القديمة فكان أولى أن ترتبط هذه النقمة بذاكرة لا تقل سوداوية لكنها أقرب تاريخياً وهي فترة الاضطهاد المسيحي خلال العصور الوسطى أي في الوقت الذي كانت فيه الأقلية اليهودية تنعم بمناخ التسامح العام في البيئة العربية الإسلامية سواء في الدولة العباسية أو الأندلس، إذ يصرح بنجامين دزرائيلي Benjamin Disraeli بتلك النوايا قائلاً: "شعب الله يتعاون مع الملحد، جامعو المال الأكثر مهارة يتحالفون مع الشيوعيين وذلك لأنهم يريدون أن يدمروا المسيحية التي تنكرت لهم والتي تدين لهم حتى باسمها ولم يعودوا يستطيعون تحمل سلطتها"⁽³⁰⁾، لذا فمسألة الاستعمار وإن كان اليهود قد استفادوا منها خاصة على الصعيد الاقتصادي إلا أنها لا تفهم بشكل أعمق إلا من خلال فهم طبيعة العلاقة بين الغرب والشرق، فلم لا يكون الغرب الاستعماري هو المستفيد من منح اليهود كياناً سياسياً في الشرق ضماناً لاستمرار مشروعه الاستعماري وإن بطريقة مختلفة؟

3- اليهودي المواطن:

لقد تكللت مساعي اليهود الدؤوبة لتغيير ملامح المجتمعات الأوروبية بالقضاء على الملكية التي لطالما مثلت عنصراً جالباً للمحن، إذ كانت السلطة السياسية تتعامل بمنطق نفعي مع المكون اليهودي فتستعين به وقت الحاجة وتقضيه مثيرة حوله سخط الجماهير كلما اقتضت المصلحة ذلك.

إن القضاء على التراتبية الاجتماعية أدى في جانب آخر إلى هدم التقاليد، ليكتمل المشهد بثورة سياسية أرست مفهوم المواطنة، وقد كان اليهودي المستفيد الأول من كل ذلك لذا اعتبر مالك بن نبي إعلان حقوق الإنسان الذي تزامن مع الثورة الفرنسية 1789م خاصاً باليهود على وجه التحديد "إعلان حقوق الإنسان والمواطن كان لازماً في إطار خطة عمل اليهودي في العالم وهو الأكثر أهمية إذا ما اعتبر في فرنسا في مستوى القانون" (31).

لقد استفاد اليهود من مناخ عصر الأنوار وقدموا نماذج عقلية أثارت إعجاب النخب الأوروبية ما سهل اندماجهم واستيعابهم للمعطيات الحضارية والثقافية، لكن أهدافهم ظلت بعيدة الأفق.

4- اليهودي الحديث:

يعتقد الكاتب أن وصف اليهودي بالحديث فيه خلل على صعيد المعنى، ذلك أنه ثابت لا يتغير بتغير الزمن إذ يقول: "هو كالأشياء الثابتة مع الزمن لا عمر لها لأنها لا تتغير أبداً" (32)، يعكس هذا الحكم طبيعة الصورة التي يحملها مالك بن نبي عن اليهود والتي تخرجهم من السياق التاريخي وتدخلهم دائرة التتميط، وقد فسر ذلك برغبتهم الأزلية في فرض سيطرتهم على العالم بفضل نفوذ المال (33).

إن النظر إلى هذه الجزئية يختلف باختلاف المرجعية الفكرية التي ينطلق منها الباحث فإن كان مالك بن نبي قد أعطاها بعداً سلبياً فإن باحثاً آخر يعزو إليها الفضل في الحفاظ على تماسك تلك الأمم التي عاش اليهود بين ظهرانيها، إذ يقول جاك أتلي Jacques Attali في كتابه "اليهود العالم والمال" *Les Juifs, le Monde et l'Argent*: "إن الشعب اليهودي قد لعب دور الرحالة خالقاً الثروة للمجتمعات القارة، إنه لهذا السبب شغل دوره بوصفه مصلحاً للعالم" (34)، لذا فإن هذه المسألة تبقى محط تجاذبات ولا شك أن إثباتها أو نفيها يعكس تحيز الباحث لهذا الطرف أو ذاك.

يستمر مالك بن نبي في رصد تطور هذه الفكرة التي ولدت حسب نظره النظام الرأسمالي الذي يعتبر إمبراطورية اليهود.

5- اليهودي الذي رمى القناع:

تعتبر هذه المرحلة الأخيرة في مسار تشكل الصورة النهائية لليهودي، فبعد أن وظف كل المعطيات التاريخية لصالحه نزع عنه ثوب الخضوع والمسكنة وغادر منطقة الظل كاشفاً نفسه للنور، لا بل صار هو صانعاً له، وبدل أسطورة اليهودي الهائم على وجهه ظهرت أسطورة جديدة هي أسطورة اليهودي السوبرمان، حيث تمكن من تطويع كل الوسائل المتاحة لفرض هيمنته على الفكر الأوروبي بدءاً بالإعلام والمنابر العلمية وصولاً إلى مراكز صنع القرار، حتى تأتى له في الختام "إشهار جنسية إسرائيل، وبقدر هذه الجنسية أعلن نفسه مؤلف ومعلم العصر الحديث" (35).

يعتقد مالك بن نبي أن اليهود قد فرضوا نظاماً كرس سيطرتهم على العالم، تشكل المنظومة الاستعمارية أبرز ركائزه، إذ صنفوا شعوب المعمورة إلى ثلاث طبقات: شعب الله المختار/ الاستعمار الأوروبي/ الشعوب المستعمرة، ويستحضر لتوضيح هذه الفكرة حدثاً صحفياً بارزاً شهدته هولندا خلال السنوات التي سبقت الحرب

العالمية الثانية يهدف إلى تذكير الشعب الهولندي بأنه مدين لليهود بإقامة صرح إمبراطورية هولندا الاستعمارية، لذا فالاستعمار في نظره مشروع يتوفر على أبعاد روحية عنصرية تعد من صميم النفسية اليهودية ولا يمكن اختصاره في مجرد البحث عن الموارد الاقتصادية، ونتيجة تغلغل هذه العنصرية في وجدان الأوروبي مني أدولف هتلر Adolf Hitler بهزيمة غير متوقعة على أيدي الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية، رغم أنه اعتبر القضاء على اليهود أبرز أهدافه، فبدل أن يتحرر من إرثهم الفكري الذي تسرب إلى كل تفاصيل الحياة الأوروبية راح يتعامل مع ظاهر القضية مغفلاً جوهرها، إذ يقول في هذا الصدد: "فهتلر لم يعرف أن المشكلة بدأت في داخله وفي أفكاره العامة وانعكاساتها على نفسه. فبدلاً من أن يتعامل مع مشكلة 95% من الأبنية في برلين التي يملكها اليهود، كان عليه أن يتعامل بداية مع 95% من الأفكار المتداولة في ألمانيا، وبالأولى في إنكلترا والتي جاءت من اليهود"⁽³⁶⁾.

لقد حاول مالك بن نبي في هذا العمل تقديم قراءة لمشروع الهيمنة الغربي تتجاوز ما يبيده ظاهر الأمور فعمد إلى تتبع الخيط الخفي الذي يصل حلقات التاريخ بعضها ببعض، ليكشف عن دور الشبكات اليهودية في إدارة دفة هذا العالم حسب ما تشتهي رباحها، لكنه في المقابل لم يستطع كبح جماح ذاتيته وانفعالاته الواضحة اتجاه اليهود فبدت بعض أحكامه ذاتية تميل إلى التعميم، ويمكن تفهم ذلك إذا علمنا أن تاريخ إعلان قيام دولة إسرائيل ليس بعيداً عن تاريخ كتابة هذا العمل، كما أدى انطلاقه من تصور اليهود كوحدة منسجمة إلى تجاهل جوانب مهمة من الموضوع، إذ يغيب الحديث في كل ثنايا البحث عن يهود الشرق وكأنهم غير موجودين، من ناحية أخرى يبدو مفهوم الشتات الذي انطلق منه الكاتب كأبرز حدث في أوروبا الحديثة بعد وصول اليهود إليها غير واضح المعالم بشكل دقيق، إذ يحيل أحياناً على خروج اليهود بعد تهديم الهيكل في القدس، ويحيل أحياناً أخرى على شتاتهم بعد محاكم التفتيش في إسبانيا ولا ندري إن كان هذا الخلل ناتجاً عن الترجمة أو مرتبطاً بالمادة الأصلية في حد ذاتها، وعليه فإن الكاتب وإن حاول كشف حقيقة اليهود ومخططاتهم إلا أنه لم يخرج عن سياق بعض الرؤى التي تروج لها الصهيونية مثل وحدة الشعب اليهودي والشخصية اليهودية، أو التصورات المسيحية لليهود خلال القرون الوسطى أي بعبارة أخرى اعتبارهم وحدة عضوية من الملائكة أو الشياطين.

خاتمة:

كشفت الدراسة عن وجود نقاط تباين واضحة على صعيد تصورات الكاتبين حول موضوع اليهود نتيجة اختلاف منطلقات كل منهما، ويمكن إجمالها فيما يأتي:

- انطلق ألبير ميمي في تحليله من فكرة الضحية، وهي فكرة ذات أبعاد سيكولوجية بالدرجة الأولى نظراً لعدم انفصاله عن الموضوع الذي هو بصدد معالجته.
- إن حس إدانة الآخر عند ألبير ميمي جعله يضع كل من الغربي والعربي في كفة واحدة، رغم أن مشروعه في الأساس يندرج ضمن تفكيك المنظومة الغربية الاستعمارية وكشف آليات اشتغالها، وتأتي هذه الرؤيا امتداداً للفكر الصهيوني الذي يروج للاضطهاد العربي لليهود من منطلقات سياسية.
- بدا مالك بن نبي أعمق رؤية في تتبع حيثيات الموضوع، وذلك من خلال تقديم قراءة لعلاقة المكونات الحضارية الغربية والشرقية فيما بينها، كاشفاً الدور المحوري الذي لعبه اليهودي في توجيهها، لكن تنبيهه لمواقف سياسية ذات خلفية قومية ودينية معادية للصهيونية جعله لا يلتفت إلى الفارق النوعي بين اليهود باعتبارهم عرقاً والصهيونية باعتبارها حركة سياسية، إضافة إلى عدم أخذه الفوارق الجوهرية بين اليهود بعين الاعتبار.

- افترض مالك بن نبي وجود نمط واحد يمكنه أن يؤثر علاقة اليهود بالمسلمين جوهره فكرة الصراع، مستبعداً إمكانية التعايش السلمي بين الطرفين على غرار ما شهده العصر الأندلسي نتيجة الإغلاء من قيم التسامح بدل العداء.

- يُعتبر الفكر الديني المسيحي المكوّن الأوّل للصور النمطية التي ارتبطت باليهود في أوروبا، في المقابل يشكّل الصراع السياسي بين العرب والحركة الصهيونية العامل الرئيس في تشويه صورة اليهود عند مالك بن نبي. في الختام، يجدر القول إنّه من العصي تقديم رؤية محايدة حول موضوع يتسم بالحساسية والحمولات السياسية والدينية الضاغطة من طرف كاتبين يعيشان واقعاً مأزوماً ويقفان على طرفي نقيض، إمّا بسبب هذا الموضوع أو لكونهما يمثلانه، لذا فالتحيز موجود وإن بنسب متفاوتة.

الهوامش:

1- زينة عبد الستار مجيد الصفار، نظرية الصورة الذهنية وإشكالية العلاقة مع التمييز، مجلة الباحث الإعلامي، العدد 2، 2016، ص 125.

2- Albert Memmi, Portrait d'un juif, éd Gallimard, 1962, p 17.

3- Ibid, p 26.

4- Ibid, p 30.

5- قضية دريفوس L'affaire Dreyfus: بطلها ضابط فرنسي يهودي من مقاطعة الألزاس، كان اسمه ذا طابع ألماني "مولهاوزن" لذا قام بتغييره إلى ألفريد دريفوس، اتهم بسرقة وثائق سرية عسكرية وتسليمها للملحق العسكري الألماني سنة 1894م، لذا تمت محاكمته عسكرياً وتولت الصحف المعادية لليهود تعبئة الرأي العام، فكانت النتيجة أن حكم عليه بالسجن مدى الحياة والنفي إلى جزيرة الشيطان على الساحل الإفريقي بعد أن جرد من رتبته، يقال إن هذه القضية تركت أثراً بالغاً في تيودور هرتزل إذ كشفت له عن عبثية محاولة الاندماج، ما جعله يتبنى الحل الصهيوني. انظر: عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج1، دار الشروق، مصر، 2006، ط 3، ص 154.

6- Albert Memmi, Portrait d'un juif, p 34.

7- Ibid, p 42.

8- الإشكاز Ashkénazes: رغم اختلاف المصادر الدينية واللغوية في تحديد أصل الكلمة، إلا أنه يقصد بها في الاستخدام الحالي اليهود الغربيون ذوو الأصول الفرنسية والألمانية والبولندية، خاصة الذين انتشروا في أوروبا خلال القرن السابع عشر. انظر: عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج 1، ص 82.

9- السفاراد Sépharades: مصطلح مأخوذ من الأصل العبري سفارديم، استخدم منذ القرن الثامن الميلادي للدلالة على إسبانيا، ويستخدم في الوقت الراهن للدلالة على اليهود الذين عاشوا أصلاً في إسبانيا والبرتغال ثم انتشروا بعد طردهم منها في العالم الإسلامي. انظر: عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج1، ص 82.

10- مارك ر. كوهين، بين الهلال والصليب وضع اليهود في القرون الوسطى، تر: إسلام ديه- معز خلفاوي، منشورات الجمل، بغداد، 2007، ط1، ص 55

11- Albert Memmi, Portrait d'un juif, p 61.

12- الجيتوهات Les ghettos: هي عبارة عن مناطق تعيش فيها أقليات عرقية أو دينية أو ثقافية بشكل منعزل عن الأغلبية إمّا اختيارياً أو قسراً، ارتبطت في أوروبا بالأقليات اليهودية، إذ يعود ظهور أول جيتو إلى سنة 1516 في إيطاليا، أمّا في البلدان العربية فتسمى الحارة أو الملاح.

13- Albert Memmi, Portrait d'un juif, p 70.

14- Mircea Eliade, Images et symboles, éd Gallimard, Paris, 1981, p 31.

15- Albert Memmi, Portrait d'un juif, p 107.

الأزتيك: Aztec قبيلة من القبائل الأصلية التي عاشت في وادي المكسيك خلال القرن الثاني عشر للميلاد قبل وصول الأوروبيين، اشتق اسمها Azteca من Aztlan أي موطن طائر مالك الحزين الأبيض حسب تاريخها المقدس، تخلت لاحقاً عن اسمها واستبدلته باسم مكسيكا Mexica، نسبة إلى متزليابان Metziapan أي بحيرة القمر، وهو الاسم الأسطوري الذي يطلق على بحيرة تكسكوكو

Texcoco. انظر: ديفيد كاراسو وسكوت سيشونز، عصر الأزتلك أمة الشمس والأرض، تر: ميسون جحا، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة مشروع كلمة، أبو ظبي، 2012، ط 1، ص 23.

16- Albert Memmi, Portrait d'un juif, p 120.

17- Béatrice Philipe, être juif dans la société française du moyen Age à nos jours, éditions complexe, 1997, p 214.

18- Albert Memmi, portrait d'un juif, p 137.

19 -Stavros Voutyras, Idéologie et valeurs le travail conception classique et conception romantique, revue internationale des sciences sociales, revue trimestrielle, volume XXXII n° 3, Unesco, paris, 1980, p 435.

20- Albert Memmi, Portrait d'un juif, p 146.

21- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ج 2، دار الوعي، الجزائر، 2013، ط 1، ص 49.

22- مسعود كواتي، اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، دار هوم، الجزائر، 2009، ط 2، ص 18.

23- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 49.

24- المرجع نفسه، ص 51.

25- المرجع نفسه، ص 65.

26- عبد الوهاب المسيري، من هو اليهودي، دار الشروق، القاهرة، 2002، ط 3، ص 22.

27- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 61.

28- المرجع نفسه، ص 63.

29- المرجع نفسه، ص 65.

30- سعد البازعي، المكون اليهودي في الحضارة الغربية، المركز الثقافي العربي، المغرب، بيروت، 2007، ط 1، ص 33.

31- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 71.

32- المرجع نفسه، ص 71.

33- المرجع نفسه، ص 75.

34- Jacques Attali, Les Juifs le Monde et l'Argent Histoire économique du peuple juif, librairie Fayard, 2002, p 691.

35- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 91.

36- المرجع نفسه، ص 99-100.